

المدرسة الوطنية العليا في الأمن السيبراني
مادة تاريخ الجزائر / History of Algeria

ENSCS 2025-2026

First year (S1)

Pr. BOUSLIMANI Abderrahmane

الدرس الثالث

الجزائر خلال العهد العثماني

1830-1519

مقدمة

- دخلت الجزائر مرحلة جديدة من تاريخها ابتداء من سنة 1519م، بعد أن قررت مواجهة الاحتلال الاسباني بالتعاون مع العثمانيين، وهكذا بدأ عهد الخلافة العثمانية في الجزائر والذي دام أكثر من ثلاثة قرون، عرفت الجزائر خلالها تطورات سياسية واقتصادية وثقافية هامة.

1-الظروف الدولية والإقليمية:

- شهدت أوائل القرن 16 أزمة حادة أسفرت عن انهيار بُنى الدول القديمة في المغرب العربي وما انطوت عليه من توازنات. وبفضل تدخل العثمانيين في الجزائر، تخضعت هذه الفترة عن نظام جديد، أحدثت في نهاية المطاف استقراراً استمرّ حتى أوائل القرن 19 الذي وقعت فيه أزمة بنيوية أُنذرت بقدوم السيطرة الاستعمارية.

–أزمة القرن 16 والحل العثماني: The sixteenth-century crisis and the Ottoman solution in Algeria

أصابَت هذه الأزمة العالم العربي بأسره، كانت أزمة اجتماعية وسياسية نتجت عن عوامل ضعف توحيد المجتمع (أي القوى السياسية والعسكرية وجماعات كبار التجار وطائفة العلماء) كما كانت أزمة اقتصادية في عمقها بسبب تغيير مسارات الطرق التجارية الرئيسية. كما كانت أيضاً أزمة ثقافية انطوت على تغيير الأزمة المتعددة الوجوه في فترة بالغة الخطورة شهدت ميلاد عالم منافس هو أوروبا التي كانت تستيقظ اقتصاديا وسياسيا وثقافيا. وكان العثمانيون القاطنون على مشارف العالم الإسلامي هم وحدهم الذين تكيفوا مع الزمن بعض الشيء باستعمال عدد من التقنيات والأفكار الحديثة بما في ذلك الأسلحة النارية والتنظيم العسكري والإداري الكفء. وكان الرد العثماني على تحديات تلك الفترة، منفذاً للمجتمع الجزائري الذي غلب عليه الانحطاط وتعرّض لأخطار خارجية.

- وفي الفترة من عام 1505 حتى عام 1547، حاول الملوك الاسبان توطيد أقدامهم على الشواطئ الجزائرية، أهمها حملات بيدرو نافارو بين عامي 1505 و1511 (ضد وهران وبجاية)، وحملات امبراطور الرومان المقدس بين عامي 1535 و1541، وأخيراً حملات دون خوان النمساوي الذي انتصر على العثمانيين في معركة لبيانتو. غير أن مكاسبهم ظلت مع ذلك محدودة إذ لم يلبث أن تبين أن غزو داخل الجزائر وتنصير سكانها أمر مستحيل. واكتفى الإسبان باحتلال عدد من المدن (وهران من عام 1509 إلى عام 1708 ثم من عام 1732 إلى عام 1798).
- كان أول من أعلن الحرب من العثمانيين على الاسبان في الجزائر وإن كان باتفاق مع الأمراء المحليين وبمساعدة من السكان المحليين- الأخوين باربروسا (عروج وخيرالدين من بداية القرن 16 حتى عام 1519). وبعد هزيمة عروج ومقتله في حوالي ذلك التاريخ، بايع خير الدين السلطان العثماني واستنجد به وبذلك نشأت أول إيالة عثمانية في المغرب العربي وهي الجزائر.
- وبفضل الانكشارية والأسلحة التي تلقوها من إسطنبول، استطاع خير الدين باشا وخلفاؤه من بعده، ولاسيما صالح راييس (1552-1556) وعلي (1568-1587)، أن يخضعوا الجزائر تدريجياً. وظل شمال افريقيا مسرحاً لصراع طويل بين الاسبان والجزائريين المدعومين من الباب العالي استمر حتى تحرير وهران عام 1792.

2-مراحل الحكم العثماني في الجزائر:

- -خضعت الجزائر لنظام عسكري سياسي مباشر ومطلق من الباب العالي تحت حكم الباي، واستمر هذا الوضع الى غاية استشهاد الباي علي عام 1587. وولّت إسطنبول بعد هذا التاريخ حاكم جديد برتبة باشا (الباشوات 1587-1659) يعاونه مجلس من كبار الضباط العثمانيين يسمّى الديوان. وكانت قيادة الإنكشارية تتولى مسؤولية الدفاع عن البلاد وتحفظ القدر الأدنى من الأمن، وكانت بمثابة دعامة للنظام الجديد.
- وحققت الجزائر قدراً كبيراً من الاستقلال تجاه إسطنبول منذ أوائل القرن السابع عشر وإن احتفظ الباشا بقدر من امتيازاته حتى عام 1659 عندما استولى ديوان الأغوات (كبار الضباط) على السلطة. لتبدأ مرحلة حكم الاغوات (1659-1671) التي لم تدم طويلاً لأن أحد الدايات نجح في عام 1671 في الاستيلاء على السلطة ممثلاً لقيادة رياس البحر (القوات البحرية) أولاً ثم لقادة الإنكشارية بعد ذلك، ومع ذلك بقيت سلطة الداى ضعيفة. ففيما بين 1671 و1710، شغل هذا المنصب السامي أحد عشر دايّاً كان نصيب أكثرهم العزل أو القتل (داي واحد فقط مات ميتة طبيعية) أثناء حركات التمرد التي قام بها الإنكشارية. وبذلك يتضح ان نظام الحكم في الجزائر كان نظاما عسكريا أصبح ديمقراطيا خلال القرن 17 لفائدة الطبقة التركية وحدها نظراً لعدم وجود جماعة قوية من السلطات المدنية المحلية القادرة على ممارسة نفوذها على النظام السياسي.

• وكان الكولوغلي (المولدين لأب تركي مهاجر وأم جزائرية) مبعدين عن الجيش وعن المناصب العليا، وهي سياسة كانت تثير المعارضة باستمرار. فقد نشبت ثورات عديدة في الشرق والغرب وأسفرت في النهاية عن تخفيض كبير للضرائب. وبالرغم من هذا حقق نظام الداوي الجزائري خلال القرن 18 مزيداً من الاستقرار والفعالية، حيث أنه في الفترة من 1710 الى 1798، فإن سبعة دايات ماتوا ميتة طبيعية من جملة تسعة دايات تولوا هذا المنصب الرفيع. ويخصّ بالذكر في هذا الصدد حكم محمد بن عثمان الذي دامت ولايته من 1766 الى 1791 أعطى خلالها الدولة الجزائرية استقراراً لا مرأى فيه. وحقق دايات الأقاليم الثلاثة (التيطري، قسنطينة، معسكر-وهران بعد 1792-) تطوراً ملحوظاً نظراً إلى حسن اندماجهم مع السكان المحليين. وكان لهذه التطورات أن تقع في وقت لاحق في العاصمة نفسها حيث أقدم الداوي علي خوجة في أواخر عام 1817 (توفي في مارس 1818)، بتأييد من الكولوغلي والزواوة، على إبادة قيادة الانكشارية، وبذلك قضى نهائياً على نفوذ قيادة الجيش. وكان من الممكن آنذاك أن يحدث تأميم سريع للنظام الجزائري، ولكن الغزو الفرنسي الذي وقع عام 1830 وضع حداً لتطور بدأ متأخراً أو في ظروف غير مواتية عندما أصبح اتّساع الخلاف بين الرعايا وحكامهم حقيقة واقعة.

• ومجمل القول لقي النظام العثماني الجديد قبولاً حسناً في المدن التي كانت معرضة مباشرة لهجمات النصارى، كما لقي قبولاً حسناً عند رجال الدين ومن فئات الناس كأعيان المدن بوجه عام وبكار أعيان الريف وجماعات بأسرها مثل قبائل المخزن. وقام في وجه العثمانيين جميع أولئك الذين كانوا قد استفادوا من حرية أوائل القرن 11 وأهل الأرياف الذين كانوا يتمتعون بنظامهم الاجتماعي والحربي الخاص. وكل ذلك اقتضى من العثمانيين أن يشنوا حروباً طويلة لإخضاع داخل البلاد ولاسيما مناطقه المفيدة وإقامة المعسكرات المسلحة هناك لجباية الضرائب وكفالة الحد الأدنى من النظام.

3-الوضع الاقتصادي والاجتماعي والثقافي للجزائر أثناء العهد العثماني:

- أتى النظام العثماني الجديد الى الجزائر بما كانت في أمس الحاجة إليه وهو التواءم مع الأزمنة الحديثة. فقد آتاه جيشاً منضبطاً يتقن استعمال الأسلحة النارية وإدارة مركزية نسبياً وجانباً من النقد المتداول في البحر الأبيض المتوسط يُجمع عن طريق القرصنة. وكان المجتمع الجزائري يشتمل على فئات اجتماعية واقتصادية هي: أهل المدن وفلاحو ضواحي المدن والفلاحون شبه المستقرين، والرعاة الرحل الذين كانوا يرحلون بعيداً عن أراضيهم، ورعاة الإبل الموغلون في الصحراء، وسكان الواحات. وكانت الطبقة الرئيسة في المدن تتألف من الأعيان ورجال الدين والتجار والכולوغي، وأخير كبار ضباط الجيش العثماني وكبار موظفي الدولة المدنيين.
- وكان أهل الريف ينتمون الى قبائل شتى. وكان النسب سبباً في اجتماع كثير من القبائل الصغيرة من حول شيخ منتخب يعاونه على إدارة شؤون القوم مجلس يضم كبار رؤساء القبائل. وكان يوجد فوق القبيلة الصف (جمعه صفوف) وهو عبارة عن اتحاد من القبائل التي يربط بينها حلف. وكان الناس ينتظمون داخل هذه الوحدات إما في إطار منطقة بيئية واحدة أو في إطار جماعات من مناطق اقتصادية مثل رعاة الإبل ورعاة الأغنام والفلاحين. وقد نجحت بعض الجماعات الإقليمية في إيجاد قيادة مركزية ثابتة على المدى الطويل، مثل قيادات الطوارق الكبرى في جنوب الجزائر التي يوجد على رأس كل منها أمين عقال.

- ويمتاز القرن السابع عشر بازدياد الاستقرار الإقليمي وما يترتب عليه من قلة الاضطرابات، وبتعزيز المخزن (القبائل المتحالفة مع العثمانيين) ونظام الصف.
- وفي حين أن أكثر أهل الأرياف كانوا من الناطقين بالعربية، ظلت جماعات كبيرة تتكلم باللغة الامازيغية. وكانت تلوذ بمناطق جبلية مثل الاوراس وجرجرة. وكانت الجماعات الامازيغية أنجح من الجماعات العربية في مقاومتها للعثمانيين. والسبب في ذلك هو المناطق الجبلية التي لاذت بها ونظام دفاعها المحكم. وساعدها نجاح مقاومتها على الاحتفاظ بروابط قوية بشتى صور الثقافة الامازيغية. واحتفظت بهويتها الامازيغية وباستقلالها فرفضت دفع الضرائب، واستعربت منها الجماعات التي لم تستطع الحفاظ على استقلالها. ومن جهة أخرى، أصبحت بعض المناطق الامازيغية المزدهمة بالسكان، مثل منطقة القبائل، مناطق يجند منها الجنود ليرسلوا للخدمة في الجزائر أو تونس وأطلق عليهم اسم زواوة.

• وكان للمدن إشعاعها في الجزائر وتأثيرها على المغرب العربي كله، وشملت تلك المدن الحواضر العريقة مثل قسنطينة وبجاية وتلمسان والجزائر التي ورثت تراثاً قيماً وتغذت بعطاءات الأزمنة الحديثة تشهد انبعاث التجارة والصناعة ابتداءً من النصف الأول للقرن 17م، كما نمت صناعة النسيج الفاخر في هذه المدن. أما التجارة فقد انتعشت هي الأخرى في المدن الساحلية على الأخص بفضل القرصنة أولاً وما كانت تحققه من منتجات ونقود، ثم بفضل العلاقات التي أقيمت مع الرأسمالية التجارية الأوروبية (الحبوب والمنتجات الزراعية). وأخذ الجانب الديني يفيق تدريجياً من غفوته بعد الازمة التي انتابته في القرن 16، وذلك بفضل الازدهار المادي النسبي للمدن وما ترتب عليه من زيادة عدد العقارات الموقوفة للمؤسسات الدينية. ويرجع هذا التحسن الديني الى السلطات العثمانية الجديدة التي خصّت برعايتها علماء المذهب الحنفي بصفته مذهب الإمبراطورية أولاً ثم علماء المذهب المالكي السائد بين أهل البلد.

مدينة قسنطينة كما تبدو في رسم حجري فرنسي في القرن 19 م.

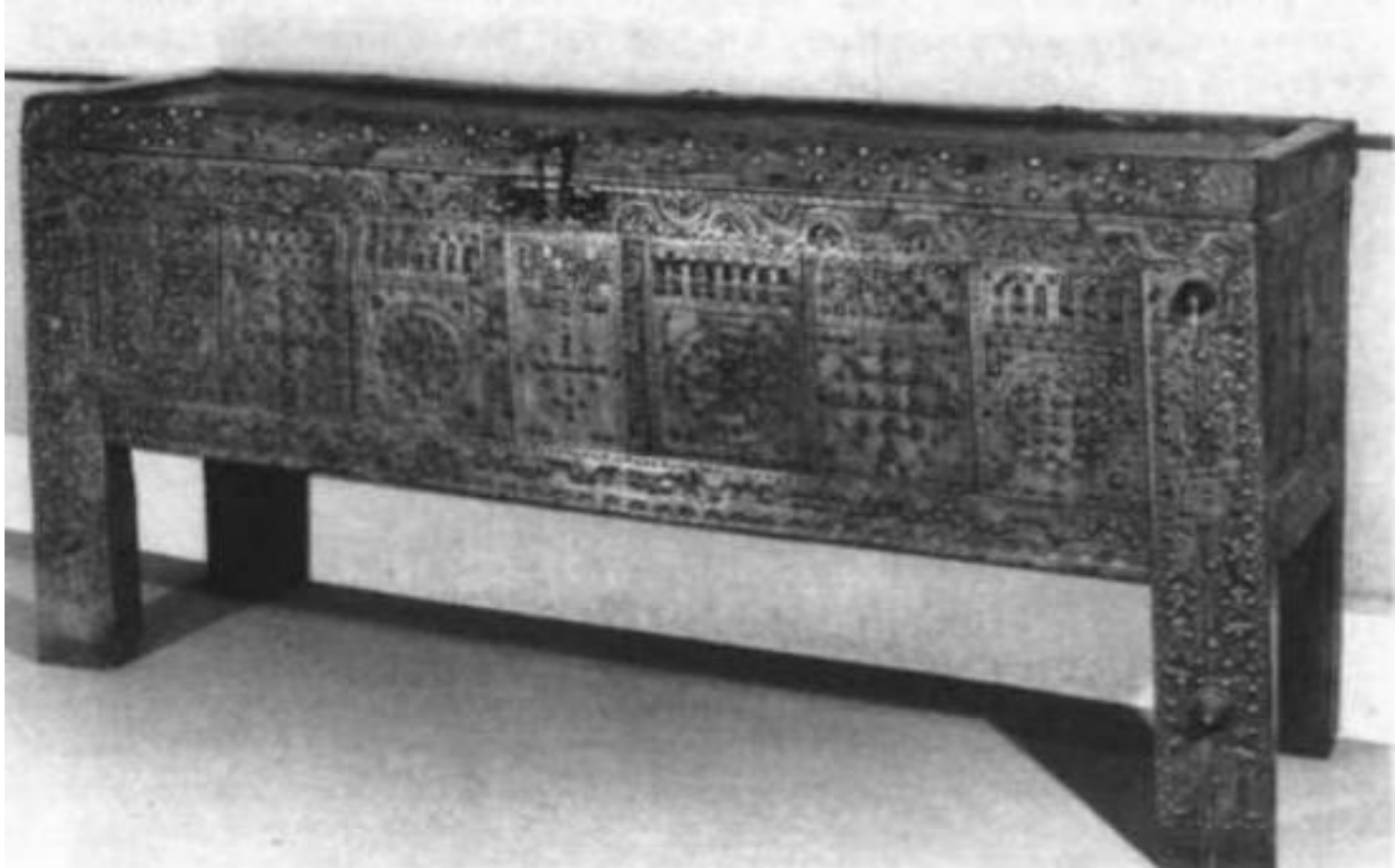
The city of Constantine, as portrayed in a nineteenth-century French lithograph



وشاح جزائري مطرز بالحريير الطبيعي مع خيوط ذهبية وفضية. يرجع عهده الى أواخر القرن 17 طوله 302 سم
Late seventeenth century Algerian embroidered scarf in muslin, natural silk, and gold and silver
thread. Length: 302 cm



صندوق الزواج من قرية أغيل علي مصنوع من خشب الأرز والنحاس والحديد، يرجع عهده الى القرن 18. طوله 198 سم
Eighteenth-century wedding chest from Aghil-Ali (Algeria), made of cedar wood, brass and
iron. Length: 198 cm



- وبينما كان حكام تونس وطرابلس يشركون بعض الأهالي تدريجيا في وظائف مستشارين وكتبة وحتى كقادة عسكريين، فإن حكام الجزائر استبعدوا السكان الجزائريين وظلوا طوال فترة حكمهم غرباء عن أهلها تماما، ويرجع السبب في ذلك الى ضعف طبقة الصفوة، وخاصة في مدينة مثل الجزائر والتي أنشأ معظمها العثمانيين وكانت الصفوة بها ضعيفة.
- وساهمت العائلات النافذة في تنشيط التجارة مع أوروبا، كأسرة القلي في قسنطينة وبوشلاغم في وهران، كما نجد أسرتين يهوديتين جزائريتين هما البكري وبوشناق اللتان اضطلعتا بدور قيادي في علاقات الجزائر مع أوروبا في القرن 18 وأوائل القرن 19م.

غطاء فضي للرأس مخروطي الشكل، من الجزائر يرجع عهده الى القرن 18، علوه 15 سم
Eighteenth-century silver conical headdress from Algeria. Height: 15 cm



كلمات ختامية

اجتازت الجزائر في القرن 16 أزمة حادة ترجع في مقامها الأول الى عجزها عن التكيف مع عصر الأسلحة النارية. وقد زوّد العثمانيون الجزائر بحلّ لهذه الأزمة بإنشائهم أجهزة عسكرية وإدارية حديثة قادرة على تأمين دفاعها الخارجي وعلى تحقيق الأدنى من الاستقرار الذي يقتضيه بقاء المجتمع. غير أن العثمانيين حكموا الجزائر بقبضة من حديد مع استغلال كبير لمواردهم كلما تيسر لهم ذلك مما أسهم في ركود المجتمع. كذلك أثرت في تاريخ الجزائر العثمانية علاقتها بأوروبا المسيحية التي كانت مصدراً لكثير من وسائل الحداثة، وكان المستفيد الأول من هذه العلاقة هي الرأسمالية الأوروبية ثم الجزائر، وان اقتصر ذلك على الفترة التي كان فيها أسطولها البحري العسكري قادراً على حماية مصالحها في مواجهة خصومها الأوروبيين، أي حتى قرابة عام 1815 وهو التاريخ الذي يختتم فترة ويستهل فترة أخرى هي فترة الهيمنة الأوروبية المطلقة.